فقالت بسرعة : « هذا صحيح ... كلهم خائن »

قلت : «لاتعجلي فالنساء أيضاً مثل الرجال . والطبيعة واحدة يا ستي ! » فلم تقتنع يا أخي ، وقد تعبت ومللت ، وخطر لي مراراً أن أتركها وشأنها ، ولم أكتمها أني ضجرت من هذا الحب ، ولكني أشفق عليها وإن كان هذا الحب منها يغيظني ويحنقني . وما ذنبها إذا كانت لا تستطيع أن تدرك هذا الذي أبينه لها ؟ ؟ ثم إن عقولهن غير عقولنا — نحن الرجال عقولنا في رءوسنا ، أو نحن على الأقل نتوهم ذلك ، أما النساء فعقولهن ليست في رءوسهن — هذا محقق — وقد قلت هذا مرة ، فثارت علي فتاة ذكية جميلة مثقفة وسألتني وهي محنقة « أين إذن عقل المرأة إذا لم يكن في رأسها ؟ » فحرت كيف أجيب ، وكان الجواب حاضراً ولكن الافصاح عنه لاسبيل إليه ، وألهمني الله أن أخرج من المأزق بقولي « عقولهن في قلوبهن » فأرضاها هذا التعبير الحسن عن معنى بعده الجهلة سيئاً وما هو بسيء ، وإنما هو الطبيعي . فكيف تريد مني وهذا تصوري للأشياء أن أعرف الحب كما تريد النساء والشبان أن أعرفه ... خيالات وأوهاماً وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ووفاء وحفاظاً إلى آخر هذا الهراء الذي لا يكون ؟ ؟

فهز رأسه متعجباً ، ولم يقل شيئاً ، فحمدت الله ، واغتنمت فرصة سكوته واستأذنت في الانصراف

ابراهيم عبد القادر المازني

الدين والأخـــلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

— ٤ —

لو أن الأستاذ النمراوي فحص عن أخلاق أمة من الأمم في نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق في خصائص تلك الأمة. ولا نعني بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها في أمة أخرى، فان الأخلاق شائعة في النفوس البشرية، وإنما نعني أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها في خصال الحمد والذم والخير والشر، ويستوي في تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هربرت سبنسر ومن يقرأ كتب الغزالي، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبي ، فان تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تذيعها في البيئة الواحدة وهي راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة ، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر في الأمة زمناً طويلا .

فاذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وفحص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير، ويشترك فيها الشيخ والأفندي كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهري في العادات وفي مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التي تظهر بها وإن كان التشابه في مقاديرها الكامنة أعظم . وأوجه الاختلاف الظاهري تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير المقهورة التي يخفيها في النفس إذا انتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلعها ويبقى فلاحا بخصائصه ، ولكنه ربما حاول أن يخفي بعض تلك الخصائص في نفسه .

والمذهب الجديد في الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التي يلبسها الفلاح ؛ والمذهب الجديد كما أوضحنا قد تأثر

مباشرة بما أخذه عن المذهب القديم وبما أخذه بطريق غير مباشر بعد أن تأثر الأدب الأوربى الذى هو وليد نزعة إحياء العلوم فى أوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأدب والفكر العربى .

ولا بد أن الأستاذ النمراوى قد عاشر طوائف مختلفة من طوائف الأمة وإن لم يكن قد درس حالة الأدباء الخلقية دراسة العشير الذى لا يُخاتَل لا دراسة القائل بما يسمع . ولا بد أن الأستاذ قد أيقن من اتفاق طوائف الأمة فى الخصائص الخلقية. ولو أنه أتيح له أن يدرس أخلاق الأدباء لوجد أن الخصائص الخلقية متشابهة فيهم بالرغم من المذهب القديم والمذهب الجديد، وأن التفاوت الفردى بين آحاد كل طائفة ربما كان أهم من تفاوت أدباء كل مذهب . فالاستقامة والصدق والعفة والنزاهة والسماحة فى الخلق والوفاء الخ ليست ملكا لمذهب فى النثر أو الشعر. وكذلك اللؤم والكذب والغدر والانصراف إلى اللذات والحقد ليست ملكا لمذهب فى الشعر أو النثر. ولو أن الأستاذ بحث هذه الخصال لوجد أن خصال الحمد والذم لابد أن توجد فى المذهبين ، فان هذه خصال وميول متوارثة تزيدها حوادث الحياة وحالاتها قوة أو ضعفا . أما غير هذا الرأى فلا يأخذ به إلا من يسهل أن يخدعه التعصب لجماعته، فان المذهب القديم أو الجديد ليس دينا له أخلاق معينة لا يتعداها، وإلا فان الأديب الذى يكتب على طريقة الأدب الجديد متأثرا بالأدب الأوربى وبطرى الاستقامة ، يعد فى نظر الأستاذ كافرا بالأدب الحديث ؛ وإن الأديب الذى يطرى أبياتا فيها مجون من صنع شاعر من شعراء المذهب القديم يعد كافرا بالمذهب القديم . وعلى هذه القاعدة يكون أكثر شعراء العرب وأدبائهم من عهد امرىء القيس (كما ذكر الأستاذ خلاف) إلى عهدنا هذا كافرين بالمذهب القديم ؛ وإذاً لا يكون هناك مذهب قديم فى عالم الوجود، ويكون السيد توفيق البكرى متفرنجا عند ما اختار لابن الرومى أرجوزته النونية فى وصف الزنا، ويكون الشيخ شريف مفتش اللغة العربية ورجل التربية متفرنجاً عندما شرح أرجوزة اللواط لفظاً ومعنى، أو يكون الأديب الواحد تارة من أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات من زهد أبى نواس أو أبى العتاهية، وتارة من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بمجونهما.

ويكون إذاً حافظ إبراهيم من شعراء المذهب الجديد إذا قص قصص المجون فى مجالسه أو روى أشعار المجون، ويكون حافظ إبراهيم نفسه من شعراء المذهب القديم إذا تناول مسبحة وروى أشعار الزهد والتقوى ، ويكون كل أديب أو شاعر من شعراء أو أدباء المذهب القديم كما يكون حافظ فى حالتيه. ويكون الأديب منهم من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بأبيات من لزوميات المعرى لا يرضى عنها الأستاذ النمراوى ، ومن أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات أخرى من اللزوميات يرضى عنها الأستاذ . وفى اللزوميات ما يُرضي وما لا يُرضى الأستاذ؛ ويستطيع الأستاذ أن يتخلص من هذه الورطة فيقرر أن الشاعر الذى يجهل اللغات الأوربية ولا يقرأ الأدب الأوربى المنقول إلى العربية هو من أدباء الفضيلة (والفضيلة كما قرر الأستاذ هى المذهب القديم) حتى ولو قال النثر والشعر فى المجون والزيغ متأثراً بمجون وزيغ شعراء (الفضيلة) القدماء ممن كتبوا باللغة العربية ، وأن الأديب الذى يعرف اللغات الأوربية والذى درس آداب اللغات الأوربية والذى يعد نفسه من أدباء المذهب الجديد هو فى الحقيقة من أدباء (الرذيلة) حتى ولو أطرى الفضيلة كما أطراها شكسبير وفكتور هيجو . وإذاً يكون من الواجب المحتوم أن الشاب الذى لاهو من أدباء المذهب القديم ولا الجديد ، لأنه ينقل عبارات أفرنجية نقلا حرفياً كالضحكة الصفراء (وغيرها من العبارات المضحكة التى يدعى أدباء المذهب القديم أنها من خصائص المذهب الجديد) أقول إنه من الواجب المحتوم أن يعد هذا الشاب من أنصار المذهب القديم ما دام يطرى الفضيلة حتى ولو أطراها كما أطراها فكتور هيجو إطراء صحيحاً ولكن بأسلوب عربى سقيم ، وأخشى أن هذا المنطق الغريب قد يسوقنا إلى أن نعد الأسلوب السقيم إذاً من خصائص المذهب القديم ما دام صاحبه يطرى الفضيلة، وأن نعده من خصائص المذهب الجديد إذا كان صاحبه يطرى الرذيلة . على أننا لو فرضنا أن الأستاذ قد أصاب فى جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة وأنه عقيدة دينية ، فكم من معتنق عقيدة يقول بلسانه ما لا يتفق وأخلاقه وأعماله! فكيف به وهو ليس عقيدة دينية حتى ولو كان كل أدبائه من عهد حسان بن ثابت إلى اليوم منزهين عن الفحش فى قولهم وعملهم

فكيف به وليسوا كلهم منزهين عن الفحش فى قولهم وعملهم بل كان منهم من بلغ من الفحش فى القول والعمل غاية ليست بعدها غاية . ألا يرى الأستاذ أن جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة مع هذه الحقائق يؤدى إلى أن ينافق من ينافق فيدعى أنه حامى حمى الدين والفضيلة كى ينال ما يرادف هذه الألقاب حسب اصطلاح الأستاذ فيلقب بزعيم النثر وسلطان الشعر ؟ إن بعض أدباء المذهب القديم قد نشروا هذا الاصطلاح بكل ما أوتوا من بيان ، كما كان كل فريق من الدول فى الحرب العظمى يدعى أنه حزب الله المصطفى وأن الفريق الآخر حزب إبليس الخاسر عليه لعنة الله . فكان الانجليز يقولون إنهم يدافعون عن الفضيلة والحضارة والعدل والخير والحق ، وإن خصومهم خصوم هذه الصفات العليا. وكان الألمان ينشرون مثل هذه الدعوة لأنفسهم حذوك النعل بالنعل. وكان كل فريق يضحك في سره من سذاجة من يصدق أقواله . وكذلك يفعل بعض الأدباء هنا وهم يخفون ما يعرفون من أن الشطط فى القول لم يكن مقصوراً على مذهب فى الفنون والآداب ، وأن مناصرة الفضائل ليست مقصورة على مذهب، وأن جعل الفضيلة مرادفة للمذهب القديم والرذيلة للمذهب الجديد شطط وظلم لا يتفق وروح العدل الذى تأمر به الشرائع السماوية ، وأنه حتى على فرض أنهم يفعلون ذلك مناصرة للشرائع السماوية لا كسباً للرزق والشهرة والمكانة ، فان مناصرة الشرائع السماوية بما ينقض عدل الشرائع السماوية من تعميم هو غاية الظلم يجعل مناصرتهم للشرائع السماوية مهزلة لا يرضاها الله، فان مناصرة الشرائع السماوية لا تكون إلا بفضائلها ، فكيف بهم وهم يعلمون أن شطط القول أو الفعل لم يكن قديماً ولا حديثاً مما يلتصق بطائفة دون طائفة ، وأنه لم يخلق الله مذهباً من مذاهب الفنون من عهد آدم إلى اليوم يصح أن يعد مرادفاً للفضيلة فى جميع مظاهره ؟

قال الأستاذ النمراوى إن النزعة إلى التجديد بدأت منذ ثلاثين سنة . وقد أوضحنا أن التجديد بمعناه الأعم الذى شرحه الأستاذ بدأ منذ دخول نابليون مصر وذاع أيام محمد على باشا واسماعيل باشا، فليس له مبدأ واحد . أما التجديد بالمعنى الأخص وهو التجديد فى أبواب الشعر والنثر ومعانيهما فهو أيضاً مما لا يحد بمبدأ واحد كما يعرف من يدرس حياة الأمم ونمو النزعات والأفكار فيها، ولكن الذى يقرأ مقالات الأستاذ وأقوال بعض الكتاب يحسب أن النزعة إلى التجديد هذه نزعة متضامنة الأفراد متحدة العناصر متفقة الأهواء والمشارب والمبادىء بدأت بمؤامرة على الدين والأخلاق. والذى يدرس حياة الأمم ونمو الأفكار فيها يعرف أن هذا خيال فى خيال. والذى يدرس النزعة إلى التجديد يرى أنها ليست ذات مبادىء واحدة وأنها نزعات مختلفة ، فان من أدباء التجديد من يرى فى المذهب الرمزى كل علو فني ، ومنهم من لا يستلذه ولا يقنع عاطفته إلى الفن لابهامه وسقوط الصلة بين الرموز والحقائق التى تشير اليها الرموز ، ولتكاثر الصور فيه بعضها فوق بعض . وقد أوضحنا أن الرافعى — وهو فى رأى أصدقائه زعيم المذهب القديم — كان أقرب إلى المذهب الرمزى فى بعض كتبه مثل حديث القمر . وليس من البعيد أن يأتى يوم يعد فيه الرافعى من زعماء المجددين فى الأدب الرمزى أو زعيمه الأكبر . ولا أحسب أن الأستاذ النمراوي كان منذ ثلاثين سنة متتبعاً تلك النزعات تتبع المعالج للبحث الاجتماعى ، فهو إذاً يقول بالسماع. وقد أوضحنا فى مقال سابق أن الأستاذ يصنع خيراً لو أنه اجتبى من المذهب الجديد ما يرتضيه وهو واجد الكثير المرتضى فان نقده يكون أوقع وأنفذ ، وإصلاحه أقدر، وحكمه أعدل . أما جعله مذهباً مرادفا للفضيلة ومذهباً آخر مرادفا للرذيلة ، فليس ذلك من اعتدال أمثاله من العلماء

(قارىء)

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعى

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً